



دلالة التشاكل بين الموشح الأندلسي والتروبادور

إدريس ولد عتيه
جامعة قطر - قطر
driss.attih@qu.edu.qa

*Received: 25 May 2014,
Revised: 15 June 2014, Accepted: 30 July 2014
Published online: 1 Sept. 2014*

دلالة التشاكل بين الموشح الأندلسي والتروبادور

إدريس ولد عتيه
جامعة قطر - قطر

الملخص

يصف الباحث بعض أوجه التأثير والتأثر بين الموشحات وشعر الشعراء الرواة والمغنين الجوالين في العصر الوسيط في أوروبا المعروفين بـ "التروبادور". وقبل ذلك، يقدم آراء بعض دارسي فن الموشحات ابتداء من ابن سناء الملك بخصوص تعريف الموشح، ويستعرض نظريات مختلفة حول نشأة كل من الموشحات والتروبادور وأي هذين الفنيين الشعريين نشأ متأثراً بالآخر، مشيراً إلى المسوغات التي دفعت باحثين كثيرين مثل المستشرقين ليفي برفنسالوكراتشوفسكي، ومقداد رحيم، ومحمد عباسه إلى الاعتقاد بأن شعر التروبادور هو الذي تأثر بالموشحات؛ ذلك أنه من المتفق عليه أن أول شاعر تروبادوري هو جيوم التاسع (Guillaume IX) أمير بايبييه الذي كتب أشعاره بين سنة 1100-1127 م أي بعد أقدم الموشحات بأكثر من 200 سنة. وكان هؤلاء الشعراء الشعبيون في جنوبي فرنسا يدعون تروبادور TROUBADOURS أي "الواجدون"، بمعنى الذين يحسون ويشعرون (من الوجدان)، وكانوا ينظمون شعرهم باللغة البروفنصالية، وهي إحدى اللغات الرومانية المتولدة عن اللاتينية، وكانوا في الوقت نفسه مغنين وموسيقيين يؤلفون أجوافاً تقصد قصور الأمراء وبيوت الأكابر لتسليتهم ومدحهم، ووقع إقبال كبير على هذا النوع من الأدب الجديد، وأخذ الأدباء حتى من طبقات الأمراء ينظمون الشعر في هذه اللغة الشعبية وعلى طريقة "الواجدين".

الكلمات المفتاحية: الموشحات، التروبادور، البنية العروضية والقافية، الموضوع والمضامين، الأزجال العربية والأندلسي، الحب العذري، الفروسية.



The Significance of Similarities Between the Andalusian Muwashah and the Troubadours

Idris Oueld Atia

Qatar University – Qatar

Abstract

This paper deals with some aspects of impact and influence between the Andalusian Arab poetry (Muwashat) and the popular poets singers who were wandering in the Middle Ages in Europe, known as “Troubadours”. Prior to that, the paper provides views of some researchers of the art of Muwashat from Ibn Sana El Mulk regarding the definition of Muwashah, and reviews the different theories on the origins of each of the Muwashah stanzas and the Troubadours poetry of which these two poetic categories were born under the influence of the other. It points to the rationale that prompted many researchers such as the Orientalists Levy Proviñçal and Winkelkrassovsky, as well as Miqdad Rahim and Mohammed Abassa to believe that it is the poetry of the Troubadours which was influenced by the Muwashat; since it is agreed that the first poet of the Troubadours was Guillaume the ninth (Guillaume IX) Prince of Panniers, who wrote poems between 1100-1127 that is 200 years after the oldest Muwashah stanza was written.

These folk poets of the south of France were called Troubadours “finders” (from French: trouver: to find), meaning those who find touch and feel (from conscience), and they used to write their poets in the Provençal language, which is one of the Romanian languages generated by Latin. They used to be singers and musicians who made up concerts and musical bands which used to attend courts and palaces of princes and the homes of senior personalities in order to entertain and praise them. A big demand for this type of new literature was the fashion, thus, writers and poets even among the princes started to compose poetry in this popular language according to the way of “the Troubadours”.

Keywords: Muwashahat, troubadours, prosody and rhyme structure, purpose and content, szjal, platonic love, chivalry.

دلالة التشاكل بين الموشح الأندلسي والتروبادور

إدريس ولد عتيه

جامعة قطر - قطر

أصول الموشحات:

تعريف الموشح:

يورد المؤرخون والباحثون عدة تعاريف للموشح لعل من أهمها ما ذكره ابن خلدون في حديثه عن ظهور الموشحات وتطورها ببلاد الأندلس (...). وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التسبيق الغاية إذ استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه الموشح ينظمونه أسماطا أسماطا، وأغصانا أغصانا، يكثر من أعاريضها المختلفة...^١.

ولعل من أوائل وأهم دارسي فن الموشحات ابن سناء الملك الذي عرف الموشح بأنه «الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص»^٢.

وقد رد الدكتور إحسان عباس على رأي ابن خلدون الزاعم أن الموشح أقدم من الزجل بل إن الدكتور إحسان يرى الموشح تطورا طبيعيا للأغنية الشعرية فيقول:

«الزجل في بدايته أغنية شعبية لم تبدأ إلا حين تم ازدواج اللغة العربية في الأندلس لانقسامها بين لهجة دارجة وأخرى مكتوبة وقد بدأ هذا الازدواج في المدن الكبيرة؛ ولا أظنه تعدي نهاية القرن الثالث وبداية الرابع»^٣.

ومن المحدثين ممن تحدثوا عن الموشحات، يمكن أن نورد رأي حنا الفاخوري الذي يعرف الموشح بأنه (قصيدة شعرية موضوعة للغناء).

والموشح فن شعري مستحدث يختلف عن ضروب الشعر الغنائي العربي في أمور عدة وذلك لالتزامه بقواعد معينة في التقنية وبخروجه غالبا على الأعاريض الخليلية وباستعمال اللغة الدارجة أو العجمية في خرجته.

ومن خلال الدراسة لهذه التعاريف نجد أنهم أجمعوا على أن الموشح لا يخرج عن كونه نوعا من النظم وأن فنه من فنون الشعر العربي.

نظريات في نشأة الموشح:

ثمة آراء مختلفة بين القدامى والمحدثين حول مكان وتاريخ نشأة الموشحات؛ فمنهم من يعيد تاريخ نشأتها إلى أواخر القرن التاسع بينما يرى آخرون أنها ظهرت في نهاية **القرن العاشر** أو أوائل القرن الحادي عشر حسب رأي فريق ثالث.

وتختلف كذلك النظريات بخصوص نشأتها حيث يرى بعض الباحثين من المستشرقين مثل مينيندزيبيلينووربييرا وجب وبعض الدارسين العرب أيضا مثل **بطرس البستاني**؛ ود. عبد العزيز الأهواني و**حنا الفاخوري** أن فن التوشيح انتقل إلى الأدب العربي من خلال الأغاني الشعبية الإسبانية (**الفلامنكو**) والبروفنسانية اللاتينية التي كانت تعرف بالرومانسية من خلال جماعة

١- ابن خلدون: المقدمة، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، د.ت، ص ٥٨٢
٢- ينظر، تفصيل هذا التعريف وتحليله في أطروحة دكتوراه مرقونة في كلية الآداب عين الشق جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء ٢٠٠٧ بعنوان الشعر الشنقيطي الفصح والشعبي ابن رازكه ومحمد بن الطلبة ومحمد بن هدار نماذج الدكتور إدريس عتيه
٣- إحسان عباس: تاريخ الأندلس، عصر الطوائف والمرابطين... دار الشرق للنشر والتوزيع ١٩٩٧، ص ٢٠٦

٤- مقدار رحيم: الموشحات الأندلسية وعلاقتها بالغناء، مجلة آفاق عربية، عدد ٩/مارس/ ١٩٨٤

- نجد أن هذه الظاهرة غربية على الشعر الأوروبي قبل جماعة التروبادور.
- ولعل العلاقة الوطيدة بين الموشح والغناء هي ذاتها العلاقة بين التروبادور والغناء، يقول إحسان عباس رابطاً هذه العلاقة: «وكان الغناء من أكبر العوامل التي مكنت للنماذج المشرقية في البنية الأندلسية؛ فإن التفاعل بين الموسيقى والشعر ذو قدرة على توجيه الشعر وتحديد قوالبه».

نشأة التروبادور وعلاقته بالموشحات والأزجال الأندلسية:

إن من مسائل الأدب المقارن التي شغلت أفكار المستعربين والعلماء الاختصاصيين في تاريخ الآداب الرومانية (وهي آداب اللغات المتولدة عن اللاتينية) قضية ظهور الشعر البروفتصالي في القرون الوسطى بشكله الذي لا يشبه الشعر اللاتيني لا في عروضه ولا في المواضيع التي يطرقها. ومن المعلوم أن الأدب في أوروبا في القرون الوسطى كان منحصرًا في الأديرة والمدارس الدينية، وكانت اللغة التي يؤلف بها الرهبان أذكارهم وأدعيتهم هي اللغة اللاتينية وإن كانت قد فقدت إذك صفاءها ومميزاتها الأصلية حتى صارت تدعى «لاتينية الكنيسة». وكانت الشعوب اللاتينية المختلفة التي تكونت من قدماء الرومانيين الفاتحين ومن أهل البلاد الأصليين تتكلم لغات أصلها لاتيني ولكنها ابتعدت بعدا كبيرا عن اللغة الأم بتأثيرات اللغات القديمة من سلتية وإيبيرية وغيرهما، وتولدت عن هذا المزيج لغات جديدة تدعى رومانية لتمييزها عن اللغة اللاتينية الفصحى. وأخذ رجال الشعب ينظمون الشعر باللغة التي يتكلمونها على غرار ما كان يفعل الشعراء الزجالون بالأندلس وشعراء الملحون بالمغرب.

وكان هؤلاء الشعراء الشعبيون في جنوبي فرنسا يدعون تروبادور TROUBADOURS أي «الواجدون»، بمعنى الذين يحسون ويشعرون

٥- إحسان عباس: تاريخ الأندلس، عصر سيادة قرطبة. دار الشرق للنشر والتوزيع ١٩٩٧، ص ٤٧.

الرواة والمغنين المعروفين في فرنسا بالتروبادور من العصر الوسيط (القرن السابع والقرن الثامن الميلادي) والذين اشتهروا في غالبية إسبانيا إذ كانوا يطوفون البلاد متنقلين من قصر إلى قصر يقصدون الأمراء في المواسم والأعياد، يتغنون بأناشيدهم الغرامية وقصص الفروسية في مقاطع غير محكمة الوزن ولا تلتزم فيها القوافي التزاما.

- ويعتمد أصحاب هذا الرأي في نظريتهم على جملة حجج منها:

- أن قصائدهم (أسوة بالموشحات) كانت مغناة
- مواضيعها تدور في الغرام والفروسية
- أنها غير محكمة الوزن ومختلفة القافية
- وجود جوانب مشتركة بين الموشحات والمنظومات التروبادورية حيث نجد في مقطوعة من المقطوعات التروبادورية جزءا يقابل الغصن في الموشحة وجزءا يقابل القفل.
- ومن نقاط الالتقاء أيضا أن ما يقابل الغصن مع ما يقابل القفل يسمى عند جماعة التروبادور بيتا كما هو الحال عند جماعة الموشحات.

بيد أن هذا الرأي خلق عند بعضهم رأيا معاكسا ذلك أنه دفع بعض الباحثين من أمثال المستشرقين (ليفي بروفنسال وبنكل وكراتشوفسكي)، ومقداد رحيم ومجدي شمس الدين أن لا يستبعدوا أن يكون شعراء التروبادور هم الذين تأثروا بالموشحات، حيث كانوا قبل أن يعرفوا فن التوشيح ينشدون منظومات شعرية تتجرد تماما من الوزن والقافية ولا تتضمن من الإيقاع إلا اتحاد الحروف الأخيرة.

- ويدعم هذا الفريق من الباحثين نظريتهم بما يلي:
- إن أول شاعر تروبادوري هو جيوم التاسع (Guillaume IX) أمير باينييه الذي كتب أشعاره بين سنة ١١٠٠-١١٢٧ م أي بعد أقدم الموشحات بأكثر من ٢٠٠ سنة.

- ما أشير إليه سابقا من التقارب الجلي بين الموشحات وأغاني التروبادور كتقابل الأغصان والأقفال.

شعراء التروبادور أبنية القصيدة مستلهمين من النظم الأندلسي وما كتب في عصر الانحطاط. ويعضد ذلك ما ذهب إليه الباحث مبرزا قوة تأثير الموسيقى العربية والموشحات هي أهم كلماتها المغناة يومئذ. يقول أنطوان محسن القوال:

«وقد كان للغناء الأثر الأبرز في ظهور الموشحات الأندلسية وازدهارها؛ لأن الأندلس يومذاك كانت عرفت انتشار مجالس اللهو والطرب في قصور الأمراء وعلية القوم، وفي الجنائن وعلى ضفاف الأنهر»^٦.

- إن هذا التثوير المفارق للممارسات الشعرية انعكس على عدة أصعدة، وخاصة البناء المعماري الذي عرف عدولات كثيرة نجد لها مجاورات واضحة في الشعر الأندلسي، سيما في الموشحات والأزجال التي كانت ذاتة آنذاك، وجزءاً من الذائقة العربية. من حيث البناء فقد كان هناك تأثير بالمطالع التي عُرِفَتْ في القصيدة الأندلسية، أي أن الأشكال الاستهلالية المبتكرة في الشعر الأوربي ليست سوى امتداد للأشكال الشعرية المتداولة في الموشحات والأزجال، بداية من المطلع المكون من شطر، إلى المطلع المكون من شطرين وثلاثة أشطر أو أربعة، وهي أنواع استلهمت من الموشحات.

- إضافة إلى المطلع فقد استفاد التروبادور من نظام البيت المتفاوت ومن نظام الأفعال: أربعة أشطر وقفل من شطر واحد، بيت وقفل من شطرين، خمسة أشطر وقفل من شطر واحد، كما فعل الشاعر سركامون. وقد نظموا أقفاً مركبة من ثلاثة وأربعة أشطر على غرار أبنية الشعر الأندلسي.

- لقد كتب الشاعر ماركبرو قصائد كثيرة متأثراً بمعيار الموشحات، على غرار قصيدة الزرزور

(من الوجدان)، وكانوا ينظمون شعرهم باللغة البروفنصالية، وهي إحدى اللغات الرومانية المتولدة عن اللاتينية، وكانوا في نفسه مغنين وموسيقيين يؤلفون أجواقاً تقصد قصور الأمراء وبيوت الأكارب لتسليتهم ومدحهم، ووقع إقبال كبير على هذا النوع من الأدب الجديد، وأخذ الأدباء حتى من طبقات الأمراء ينظمون الشعر في هذه اللغة الشعبية وعلى طريقة «الواجدين»^٦

أوجه الشبه بين الموشح والتروبادور:

• على مستوى شكل البنية العروضية والقافية:

ثمة مظاهر تشابه واضحة بين الموشحات وشعر التروبادور، ترقى إلى أن تشكل دليلاً دامغاً على أثر الموشحات الأندلسية - خاصة على مستوى الشكل والبنية الموسيقية والقافية على الشعراء البروفانسيسين أو الأكستانيين أو ما عرف عموماً بشعراء التروبادور. وقد تتبع هذه المظاهر والأدلة عدد من الباحثين في عدة أبحاث ودراسات، لعل من أهمها ما توصل إليه محمد عباسة في كتابه «كتب البروفانسيسون الشعر المصْرَع (وهو شعر متواتر عند العرب منذ القدم) والشعر المزدوج الذي قافيته (أ، ب، ج، س س)، كما فعل أرنو دي ماروي، أو تسميط الشعر بأنواعه، ومنه المثلث (أ ب، ج ج ب، س س ب) كما ورد مع بيار دو فارن.

- ويبدو أن البروفانسيسين قد تأثروا أيما تأثر بالمسمطات العربية والموشحات والأزجال، ويتضح ذلك في القصائد المربعة والخمسة في حين يكون الإيطاليون، بالعودة إلى الباحث، قد أدخلوا إلى الشعر الأكستاني القصائد المسدسة التي اشتهر بها الشاعر صورديللو، مع الإشارة إلى أن هذا النوع لم تعرفه أوروبا بتاتا، إلا في فترة متأخرة جداً عندما نُور

٦- نقلا عن مجلة دعوة الحق، العدد ٢٢.

٧- محمد عباسة، الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم، ٢٠١٢ ص ١٢

٨- أنطوان محسن القوال، الموشحات الأندلسية، (سلسلة شعراؤنا)، دار الكتاب العربي ١٩٩٤، ص ٧

* على مستوى الموضوع والمضامين " ولعل العلاقة الوثيقة بين الغناء والموشح هي التي جعلت أحد الباحثين يعود إلى هذه التراتبية فيقول يوسف عيد: «قالت العرب أيضا المصيب من المغنين هو الذي يعدل الأوزان ويتوفى النغم الطوال ويصيب أجناس الإيقاع ويختلس واقع النبرات»^٩.

تشير دراسات علماء الأدب المقارن أن هناك تأثيرا رئيسا وافدا من الشعر العربي على حركة شعراء التروبادور التي ظهرت في أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وأول من طرح هذا الفرض هو العالم ج. م. باربير في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وأدلة صحته تزداد يوما بعد يوم (راجع: الجذور العربية لشعراء التروبادور في أوروبا، سمير أحمد النزيلي-جامعة إب).

إن عناية الباحثين في الموشحات قد تختلف حسب مدارسهم البحثية تجنبا تركيزا على هذا الجانب أذاك، بيد أنهم أحلوا دراسة النغم مكانة بارزة سببلا لفهم البنية الإيقاعية للموشحات الأندلسية.

يقول سليم الحلو: «بما أن الموسيقى تتكون من عنصرين جوهريين هما: الصوت والزمن، فالصوت هو علم تركيب الأصوات المتألفة لتصير لحنًا يتغنى به إما بواسطة الصوت الإنساني وإما بواسطة الآلات الموسيقية، والزمن- هو لضبط إيقاع هذه الأصوات وأجزائها وتأديتها على صورة موزونة محكمة»^{١٠}.

يهتم العلماء الأوروبيون على نحو خاص بهذه المقولة لأنها تمثل لديهم نقطة ذات أهمية بالغة في تاريخ نشأة الأدب والفكر الأوروبيين الحديثين، ذلك أن حركة شعراء التروبادور لا تقتصر أهميتها على كونها حركة شعرية شديدة الشيوع خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر

٩- يوسف عيد: التوشيح في الموشحات باب جديد في أوزان الموشح ونغماته، دار الفكر اللبناني ١٩٩٣، ص ٨١.
١٠- إحسان عباس: الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها تقديم الدكتور. دار مكتبة الحياة ١٩٦٥، ص ٩٦.

التي نظمها على شاكلة إحدى موشحات أبي بكر الأبيض، إلى درجة التطابق الكلي بين النصين.

- وإذا كان التروبادور غيروا قليلا في الأفعال، كما فعل غيوم التاسع، إلا أن حضور النموذج الأندلسي لا يمكن محوه أو تجاوزه لأنه بارز للعيان على الرغم من سكوت النقد والدراسات المقارنة.

- كما نجد سمات مشتركة ما بين التروبادور وشعراء الموشحات والأزجال في الأندلس كتفريق الأفعال بواسطة الطول والقصر، أو تجاوز المطالع الاستهلاكية والاكتفاء بالأفعال.

"- ويعتقد جماعة من الباحثين الأوروبيين أن شعر التروبادور الأوكسيتاني قد تأثر في شكله المربع (القصيد الفجرية) بالأشكال اللاتينية القديمة، محتجين في ذلك بقطعة شعرية يتيمة كتبت في حدود القرن الثامن ميلادي على الأرجح. غير أن الشكل المربع وجد في أشعار العرب قبل هذا العصر، وقد استخدمه الشعراء في الأراجيز والمسمطات. ولعل أول من ذهب بهذا النوع من النظم إلى أبعد الحدود في بلاد الأندلس هو ابن قزمان الذي جاءت أغلب أجزاله مبنية على هذا الشكل".

- بيد أن القصيدة الأوكسيتانية طورت الخرجة لاحقا لتصبح مختلفة قليلا عن تلك التي عرفت في الأندلس، كأن نجد قصائد بخرجتين متتاليتين، كما في قصائد غيوم التاسع الذي استحدث شكلا مغايرا عن الشكل الأندلسي.

- ومن التقاطعات البنائية مسألة الشكل الحوارية، المحاورات والمناظرات التي تعتمد على مبدأ التناوب في النظم: وقد نجد هذه الأشكال في كتابات ابن قزمان.

- ورفاقه، وفي نصوص زجالي مدينة إشبيلية الذين أتبعوا قافية رسم (أ أ، ب ب أ، ج ج أ، س س أ) وقد جاءت القصيدة موحدة البناء والعدد.

ينشد إرضاء المرأة على نحو خاص، وهو مليء بإجلالها وتقديرها ويخضع الفارس القوي أمام محبوبته خضوعاً لا ينتقص من فروسيته بقدر ما يكملها. وهم جميعاً ينشدون لونا من المتعة ينبعث من الحرمان أكثر مما ينبعث من الاتصال، ويظل المحبوب على الرغم من الحرمان وفيها. وهذا اللون من الحب والمتعة لم يكن معروفاً من قبل في تقاليد الفكر اللاتيني وإنما كان شائعاً في تقاليد الفكر العربي.

كانت فكرة (الحب العذري) قد نضجت على نحو قوي بعد ظهور الإسلام، وظهرت في الجزيرة العربية نماذج لشعراء وقبوعاً في هوى محبوباتهم وفاض لسانهم بالحب شعراً، فأصبحت المحبوبة - على عادة العرب الأقدمين - محرمة عليهم، فما كان يسمح بزواج المرأة لمن قال فيها شعراً. لكن هؤلاء الشعراء ظلوا على الرغم من الحرمان أوفياء، وبقوا على ولائهم دون أمل حتى ماتوا، وكان من أقوى هذه النماذج وأشهرها، قيس بن الملوح (مجنون ليلى) وجميل بثينة، وغيرهما ممن ازدهر تاريخ الأدب الأموي بهم على نحو خاص. وقد أسهمت الفلسفة الإسلامية بمعناها العام في تأصيل الفكرة وتعميقها، وجاء أبو داود الظاهري - الفقيه الكبير - وعلم مذهب الظاهرية البارز، جاء هذا الفقيه في القرن التاسع الميلادي - قبل نحو ثلاثة قرون من ظهور شعراء التروبادور - ليكتب أول كتاب عن فن الحب تحت عنوان (الزهرة).

وأبحر هذا التفكير مع العرب إلى أوروبا، حين أقاموا دولتهم التي قدر لها أن تترك أثراً واضحاً على التفكير الأوروبي عامة، وعلى تفكير الشعوب اللاتينية خاصة، ذلك التأثير الذي يقول عنه (هنري مارو) «إن التأثير العربي على حضارة الشعوب الرومانية لم يقف فقط عند حد الفنون الجميلة التي كان التأثير فيها واضحاً وإنما امتد كذلك إلى الموسيقى والشعر».

وكان ابن حزم الأندلسي قد كتب في القرن الحادي عشر كتاباً عبر فيه عن فلسفة الحب،

في إنجلترا وأسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا، وإنما هي كذلك مظهر من أهم مظاهر التفكير في العصور الوسطى، حيث كان قلة من القساوسة هم الذين يحملون وحدهم أقلاماً تبت الناس فكرة من هنا أو من هناك. كان شعراء التروبادور في ذلك العصر، عصر ما قبل فلاسفة النهضة ومفكرها وكتابها، يحملون للقارئ والمستمع الأوروبي فكرة جديدة سامية عن الحب والمرأة. لكن مما يزيد من قيمة وأهمية هذه الحركة لدى المفكرين الأوروبيين أنها كتبت ودونت باللغات الأوروبية الدارجة، ومن المعلوم أن اللاتينية كانت هي اللغة التي يكتب بها، بحسبانها لغة شبه دينية. وما دام تداول اللاتينية محدوداً في الأوساط الكنسية والأوساط القريبة منها، فقد كان انتشار القراءة محدوداً، ولكن منذ استطاع الأوروبيون تحطيم هذا الحاجز والكتابة باللغات الحية الدارجة آنذاك التي سادت إلى اليوم "الفرنسية والإنجليزية والألمانية..." منذ ذلك الحين اتسعت قاعدة من يقرؤون ومن يكتبون وعليه زاد جمهور المثقفين والمفكرين، وعُدت هذه الظاهرة إحدى أهم الظواهر التي حملت النهضة إلى أوروبا. وفي هذا المجال تأتي أهمية شعر التروبادور بحسبانه أول إنتاج أدبي يدون باللغات الأوروبية الحديثة.

وكلمة "التروبادور" قادمة - في رأي بعض الباحثين (زيادة على الرأي السابق القائل إن معناها: الواجدون ترجمة لـ: (TROUBADOURS) - من الكلمة العربية (طرب) التي كان يشيع استعمالها بمعنى الغناء في الأندلس، ثم أضيف للكلمة اللازمة اللاتينية التي تعد اسم الفاعل، فأصبحت الكلمة تعني (المغني)، ويؤيد هذا التفسير أن بعضاً من شعراء التروبادور كان يغني على يد الشعراء الجوالين الذي يطلق عليهم اسم (التروفير) أو (الجونجير) وهؤلاء كانوا يسامرون الندامى في قصور الأغنياء، ويدور المغني الجوال في شوارع المدن بثاً للمتعة وبحثاً عن العطاء.

ويتفق شعراء التروبادور في طبيعة شعرهم في أنهم جميعاً يغنون لونا واحداً من الحب وهو الذي

والدوريات العلمية التي تعنى بالشعر الأندلسي، وبشعر التروبادور وبالعلاقة بين شعر التروبادور باللغة الأوكسيتانية وبين الشعر الأندلسي، في نمط الموشح والزجل. كان عليّ أن أدرس الموشح والزجل في جذوره المشرقية العربية التي تطور عنها، ومقارنة ذلك بشعر التروبادور الجديد على أوروبا القرون الوسطى، ثم تابعت انتشار شعر التروبادور وقنونه في عدد من اللغات الأوروبية الوليدة، وقد انتهى بي المطاف إلى الشعر الإنكليزي في ما كتب شكسبير من غنائيات الحب، التي تردد أصداء غير بعيدة من غزليات الحب العربية. وبعد شكسبير لا يعد الشعر الغنائي في موضوعات الحب قضية يسهر الخلق جراها ويختصم».

• أخذ وعطاء:

الأندلس العربية الإسلامية كانت مسرح هذا التأثير والتأثير بين الثقافة العربية والثقافات الغربية، ثمة تواصل واسع بين الممالك المسيحية ومسلمي الأندلس على مستويات ثقافية متعددة، قوامها الأخذ والعطاء، وقد ظهر هذا التواصل والتبادل على أشده في مجال الشعر. من ذلك ظهور موقف جديد من الحب والمرأة في شعر التروبادور، أعاده بعض الباحثين إلى «أوفيد» وكتابات، وبخاصة في «فن الحب» و«علاج الحب»، ولكن بين الباحثين الغربيين من يعيد هذا الموقف من الحب والمرأة إلى الشعر العربي الأندلسي وجذوره في شعر الغزل منذ الجاهلية وغزل العذريين، والغزل العباسي الذي اتخذ طابعا أندلسيا، وبخاصة في الموشحات والأزجال.

• طوق الحمامة:

أحد الباحثين الأوروبيين في القرون الوسطى، واسمه اندرياس كاييلانوس، لاحظ أن مبدأ هذا الحب الجديد يقوم على أن الحب هو المنبع والمصدر لجميع الأفعال الخيرة، وأنه لا يوجد في هذا العالم من عمل طيب أو مهذب إلا ومصدره في الحب، ينبغي أن نتذكر هنا أن كتاب ابن حزم «طوق الحمامة» قد كتب في شاطبة بالأندلس عام ١٠٢٢، وقبله ظهر كتاب أبي داود الظاهري

إنه كتابه الشهير (طوق الحمامة)، وجسد عبر هذا الكتاب-الذي لم يكن ظاهرة فردية-فكرة الحب والفروسية التي كانت شائعة لدى المسلمين في أسبانيا منذ عهد عبد الرحمن الثاني (٩١٢-٩٦١) وربما منذ عهد الفتح الإسلامي للبلاد كلها.

لقد كان وجود الوسط الثقافي العربي اللاتيني المختلط في هذه الفترة حقيقة تاريخية، لذا كان عبور الفكرة من جانب إلى جانب عن طريق هذا الوسط واردا بشدة، خاصة إذا تشابهت الظواهر الفنية الناتجة في الجانبين.

كل هذه الملامح التي تشترك فيها قصائد التروبادور مع الشكل الموسيقي للموشحة الأندلسية ولقصيدة الزجل التي كانت شائعة في العصر الأندلسي التي كان يدخل في بنائها الأساسي امتزاج اللغتين العربية والأسبانية المحلية وتسمى بالرومانثية، هذا الاشتراك وهذا التشابه يضيف بعدا جديدا ويعطي دليلا يدعم أدلة التشابه الأخرى في مضمون مفهوم الحب بين قصائد التروبادور وقصائد الحب العذري في الأدب العربي. وهي جميعها حقائق تساند معطيات الالتقاء التاريخي والفكري والثقافي لفرضية الأصل العربي لحركة شعراء التروبادور في أوروبا.

• مضطلع العرب في تطور الشعر الأوروبي:

يرصد الباحث العراقي الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، في كتابه «دور العرب في تطوير الشعر الأوروبي»، جوانب من التفاعل الثقافي بين العرب والفرنجة في القرون الوسطى، عبر البوابة الأندلسية، وبخاصة جانب الشعر بالذات، ففي هذا الجانب يلحظ الباحث دورا بارزا للعرب في تطور الشعر الأوروبي، فيتساءل: «إذا كان الشعر الإنكليزي قد تأثر، في مراحل شتى، بشعر لغات أخرى، فهل يا ترى كان للشعر العربي من أثر في تطور الشعر الإنكليزي وشعر تلك اللغات الأخرى التي أثرت فيه؟»

في مقدمة الكتاب يقول لؤلؤة: «لقد تسير لي قضاء سنة من التفرغ العلمي في جامعة كمبردج، وجدت في مكتباتها قدرا كبيرا من الكتب

الحب الحسي، لكنه يميل إلى ما يشبه اليقين إلى القول إن مصادر هذا الحب الجديد على أوروبا هي مصادر عربية، بالرجوع إلى النصوص دون تحميلها آراء فلسفية.

ويمكن الرجوع إلى المصادر العربية بنصوصها الأقرب في التاريخ إلى ظهور مفهوم الحب البلاطي في شعر التروبادور وذلك في كتاب «الزهرة» وكتاب «طوق الحمامة» اللذين يتضمنان أمثلة من الشعر العربي تمثل مفهوم الحب بحيث يمكن تلمس انعكاساتها في شعر التروبادور.

لكن هذا لا يعني أن اللاحق نسخة مصورة عن السابق، بل هي تأثر ومحاكاة تحسب حساباً للموهبة الفردية من الشعراء التروبادور الذين كانوا يعيشون في جو ثقافي جديد عليهم مصدره الأندلس، فلسفة وشعراً وموشحات وغناء

وفضلاً عن شعر الحب العذري والفروسية اللذين يمثلان أهم موضوعات شعر التروبادور، متأثراً في ذلك بالشعر العربي العذري قديماً وبالشعر الأندلسي وشعر الموشحات والأزجال خصوصاً، يشير محمد عباسه في كتابه "الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور"، سالف الذكر إلى بعض أوجه الموضوعات التي تطبع شعر التروبادور وتؤكد تأثره وتشابهه بالموشحات؛ حيث يشير إلى أن ثمة أيضاً مجاورات أخرى يمكن تلخيصها في الاستهلال المشترك: رفيقي، خليلي، صديقي، إضافة إلى الحب الفروسي (المؤانس)، والشعر العذري، الفجريات، والشكوى، والشخص، والكتمان، الخضوع، والوفاء، ووصف الطبيعة (الموصول بالغزل)، والاستغفار، إلى غير ذلك من العلامات التي تؤكد صلة التروبادور بالشعر الأندلسي.

• على مستوى الأساليب:

إضافة إلى أوجه الشبه الواضحة بين الموشحات وشعر التروبادور على مستويات الشكل والموضوعات، ثمة أيضاً نقاطاً أئتلاف وتماثل على مستوى الأساليب والتعبير الشعري. وهكذا، فإنه إذا كان التروبادور قد نظموا قصائدهم،

ببغداد عام ٨٩٠ بعنوان «الزهرة»، وكلاهما يفسر عاطفة الحب، ويمثل بكثير من الأشعار التي كانت تملأ الجو الثقافي الأندلسي قبل ظهور الشعراء التروبادور في إقليم بروفانس، الذي كان شديد الاتصال بالأندلس والممالك الإسلامية. كما يجب ألا يغيب عن البال أن اندرياس كابيلايوس كتب كتابه عن الحب بين عامي ١١٨٤ و١١٨٦، أي في أواخر القرن الثاني عشر، بعد أن ازدهر شعر التروبادور وشاع في أرجاء فرنسا، ومعنى ذلك أنه كان يلخص مفهوم الحب الجديد على أوروبا، الذي لم يكن جديداً على الثقافة العربية في الأندلس، بجذورها المشرقية.

آراء مختلفة :

وقبل أن نبحت آراء الباحثين في التروبادور وأغراضه يمكن الإشارة إلى أن الموشحات واكبت تطورات غرضية مختلفة وعن ذلك يقول محمد زكريا عناني:

«والتطور الطبيعي أن الموشحات بدأت أول ما بدأت بمعالجة موضوعات الغزل والوصف والحنين والخمريات. أي تلك الفنون الشديدة الصلة بالموسيقى والغناء ثم جاء ظرف لاحق أخذت تعالج بقية الأغراض المألوفة في القصائد»^{١١}.

وقد أثارت أشعار التروبادور وآراء اندرياس عدداً من الباحثين في أوروبا من القرن التاسع عشر فصاعداً، في محاولات لدراسة منابع هذا الشعر وما تضمنه من آراء في الحب، وقد تضاربت آراء الباحثين حول المصادر المحتملة. فمن قائل إنها وثنية الإغريق كما يصورها أوفيد. ومن قائل إنها تراكمات فلسفية من مصادر شتى طبعت ثقافة القرن الثاني عشر بما يعرف باسم النهضة الصغرى. «وربما كانت أبحاث الأب اليسوعي الكندي الكسندر دينومي في أربعينات القرن الماضي هي الأكثر فائدة ووضوحاً، إذ يرى أن الحب البلاطي لا علاقة له بالمسيحية، بل هو «هرطقة»، ولا علاقة له بوثنية أوفيد، الذي يدعو صراحة إلى

١١- محمد زكريا عناني: الموشحات الأندلسية سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٠، ص ٢٠٩.

يتضح مما تقدم أنه لا يبعد أن للموشحات الأندلسية والشعر العذري العربي تأثيرات لا تنكر على شعراء التروبادور وإن تباين ذلك التأثير حسب الأزمان والبيئات والثقافات؛ مما يوجب مفاقة شعرية ما يزال بعض صداها ماثلاً للعيان على الرغم من انقضاء قرون على جذوة منطلق ذلك التأثير.

المراجع:

- ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان
- إحسان عباس: تاريخ الأندلس، عصر الطوائف والمرابطين. ص ٢٠٦. دار الشرق للنشر والتوزيع. ١٩٩٧.
- إحسان عباس: تاريخ الأندلس، عصر سيادة قرطبة. دار الشرق للنشر والتوزيع ١٩٩٧.
- أنطوان محسن القوال: الموشحات الأندلسية، (سلسلة شعراؤنا)، دار الكتاب العربي، ١٩٩٤.
- سليم الحلو: الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها، تقديم الدكتور إحسان عباس. دار مكتبة الحياة ١٩٦٥.
- سمير أحمد النزيلي: الجذور العربية لشعراء التروبادور في أوروبا، مجلة دعوة الحق، العدد ٢٢ جامعة إب.
- محمد زكريا عناني: الموشحات الأندلسية سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٠.
- محمد عباسة، الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم، ٢٠١٢.
- مقداد رحيم، الموشحات الأندلسية وعلاقتها بالفناء، مجلة آفاق عربية، عدد ٩ مارس ١٩٨٤.
- يوسف عيد: التوشيح في الموشحات باب جديد في أوزان الموشح ونغماته، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٣.

بتدخلات لغوية ذات مستويات مختلفة، كاستعمال لهجات ومفردات أجنبية، ومنها العربية والإيطالية القديمة والفرنسية والدارجة الإيبيرية التي كانت تتخلل لغة الأوك، فإن شعراء الأندلس ومنهم ابن قزمان، استعانوا بألفاظ أعجمية محاكاة للشواحين والزجالين. لقد كتب الشاعر رامبودي فاكيرا بلغات مختلفة: الأوكيستانية والإيطالية والفرنسية والفسكونية والجليقية والبرتغالية. وقد يعود ذلك، في أحيان كثيرة، إلى أصولهم التي لا علاقة لها بالأمة البروفنسية.

ويحدث أن نجد في قصائد كثيرة للتروبادور مجاورات أخرى دالة على تناصات تؤكد استفادتهم من الشواحين الأندلسيين، وذلك بداية من التروبادور الأول الكونت غيوم التاسع.

إن كتابة القصائد باللغة الأوكيستانية والأفضل باللاتينية، أو بلغة مبهمة يعود أساساً لتأثرهم بالبيّن بختارات الشواحين الأندلسيين الذين لجؤوا إلى هذه التنوعات اللغوية لغايات وظيفية أملاها الطرف، خاصة عندما يقتضي التأسيس على مبهمات في بعض القصائد الغزلية والسياسية درءاً للحرج.

كما أخذ هؤلاء الشعراء فكرة الخرجة من الشواحين والزجالين، و"ترد الخرجة في الشعر الأوكيستاني عند التروبادور بأشكال مختلفة، لكن أغلبها لم يخرج عن نطاق الشكل الأندلسي. فالخرجة عند الأندلسيين هي القفل الأخير من الموشحة أو الزجل، أما في الشعر الأوكيستاني فقد تكون بعض الخرجات القفل الأخير من القصيدة، والبعض الآخر يأتي بعد القفل الأخير مباشرة وبالقفية نفسها"^{١٢}

١٢- محمد عباسة، م. س، ص ٢٧٢.